

الحب والجنس

الحب والجنس :

لم يخلط العرب بين الحب والجنس ، أو بين المحبة والاشتهاء . ظل الحب عاطفة تقوم على الميل القلبي ، المقرون بالايثار ، ميل يتنفس في اللقاء العف ، والتأمل في حركة النفس ، والرغبة في توحيد الشعور نحو الأشياء ، وإيثار ما به يصير المحبوب أكثر سعادة وبهاء وأنسا ، وإن يكن الحب - بسبب من ذلك - يعاني ضروبا من الحرمان والشقاء . لم يكن الاشتها أو الاعجاب الجنسي جزءاً من مفهوم الحب ، ولا عاملاً من عوامل بقاءه ، بل على العكس ، لقد كانوا يعتقدون أن النكاح يفسد الحب ويقضى عليه ، وقد قالت أعرابية تعلق على ما وصف لها من فعل العشاق : ليس هذا بعاشق ولكنه طالب ولد !! وقال أعرابي تعليقا على الفعل الجنسي : هذا مالا تفعله بالعدو ، فكيف بالصديق !! وفي حين أغفل ابن داود المفهوم المادى للذة ، فإن الوشاء من بعده رفض اعتبار التواصل الجسدى من « مسامير الحب » ، وهذا النفس المتسلل من التصور العذرى يهدف إلى استدامة الصلة وتوثيقها بين الحبيبين ، إذ لا يستمر الاعجاب الجسدى على حال ، ولا يؤدي إلّا إلى راحة وقية ، قد يعقبها ندم ، أو اشباع وزهد ، بل قد تعقبها الكراهية ذاتها ... فليس أمام الحريص على استدامة الفكرة والمبدأ - كإبن داود ، والمبقى على علاقات اجتماعية صافية مستقرة ، وهو ما هدف إليه الوشاء من دعوته إلى التزام شرائط الظرف ، ليس أمامهما إلّا صرف الانتباه عن الجانب الجسدى ، والتوجه إلى العقل والروح وروعة الاحساس بالمشاركة في الشعور . وهذا غير الحرمان ، حيث لا يضر الاشتها أصلاً ، أو لا يتيح له أن يتحكم فيه ويوجه أفكاره ، أو سلوكه . فهل كان هذا التصور لعلاقة الحب بمثابة إحياء وتأثير مستمر على وجدان الحيين ، أن يتابعوا عن كل ما يمكن أن تكون فيه ملامح الاشتها أو رائحة انجنس ، مما يدفع بهم إلى التعثر في سعيهم للاقتران بمحبتاتهم ، اقتران ينتهى فى حال تمامه إلى لقاء جنسى ؟ ! إن قائمة العشاق العذرين الطويلة ، وما انتهى إليه الحال بشكل شبه دائم يعزز ما نراه من أن الحب - انطلاقاً من فهمه هذا لمعنى الحب ، ومجموعة أخرى من الظروف - يعيش حالة من الاضطراب النفسى الذى يجعله يسعى إلى الزواج من حبيبته ، ويتمنى - دون وعى منه - ألا يتم هذا الزواج الذى سيتفقد حالة حبه فى كآله ونقائه !! وحين تتوقف عند الحيين العذرين بصفة خاصة فإننا سنمضى باكتشاف

الظروف التى تم فيها اللقاء الأول بين الحب والمحبيب ، وإلى أى مدى كان الإعجاب الجسدى عاملا من عوامل تأكيد هذا اللقاء واستدامة المشاعر التى استتبت فيه .

ومهما يكن من أمر فقد ظهر أثر هذا التصور جليا فى بعض الدراسات العاطفية ، وظهر تصور آخر لم يأخذ بهذه التفرقة بين الحب والجنس ، على الرغم من اقرار الاستعمال اللغوى لنفسه لها ، وحين يوجه سؤال إلى أبى حيان عن الفرق بين المحبة والشهوة ، فإنه يجيب بأن الشهوة ألصق بالطبيعة ، أما المحبة فإنها أصدر عن النفس الفاضلة ، وهما انفعالاتان ، إلا أن أحد الانفعالين أشد تأثرا ، وهو انفعال الشهوة ، وأنهما يتداخلان كثيرا بالاستعمال ، لأن اللغة جارية على التوسع^(١) . ومع هذا فقد قيل « المحبون العذريون » ، وقيل « فساق العشاق » دون العكس . ولهذا دلالة فى التفرقة بين الحب والعشق .

وقبل أن نمضى إلى تعريف الحب ، والعشق ، يحسن أن نتأمل هذا الخبر الذى يرويه داود الانطاكى عن عبد الله بن عجلان ، وهو من عشاق العصر الجاهلى ، وصاحبه هند . وينقل الانطاكى عن « الزهرة » أنه عذرى ، ويقرر أنه « ليس كذلك » ، وإن كان يقرر أيضا أن لبن عجلان كابد المحبة وغصة العشق ثلاثين سنة ، أما كيف رآها وعلقها فيقول :

« إن سبب اعتلاقه بها ، أنه خرج يوما إلى شعب من نجد ينشد ضالة ، فشارف ماء يقال له نهر غسان ، وكانت بنات العرب تقصده فتخلع ثيابها وتنسل فيه ، فلما علا ربوة تشرف على النهر المذكور ورآهن على تلك الحالة ، فمكث ينظر إليهن مستخفيا ، فصعدن حتى بقيت هند ، وكانت طويلة الشعر ، فأخذت تمشطه وتسبله على بدنهما ، وهو يتأمل شفوف يياض جسمها من خلال سواد الشعر ، ونهض ليركب راحلته فعجز ... ثم قال : هذه والله الضالة التى لا ترد ، ثم عاد وقد تمكن الهوى منه ، فأخبر صديقاً له ، فقال : اكتم ما بك واخطبها إلى أبيها فإنه يزوجهك بها ، وإن اشتهرت عشقها حرمتها ، ففعل ، وخطبها فأجيب ، وتزوج بها ، وأقاما على أحسن حال ..^(٢) .

ثم تتداخل قصة عشق ابن عجلان بعد ذلك مع قصة مجنون بنى عامر تارة ، ومع قصة قيس بن ذريح صاحب لبنى تارة أخرى ، فهند ، مثل لبنى ، لم تعجب ، وبقيت كذلك ثمانية أعوام ، ومن ثم راح الأب الثرى يلح على ولده أن يطلقها ، والفتى يقاوم للاحتفاظ بحبيته ،

(١) الامتاع والمؤانسة ج ٣ ص ١٠٥ ، ١٠٦

(٢) تزين الأسواق فى أخبار العشاق ص ١٤٠ ، ١٤١ ، وقد سبق ابن الجوزى فضن على الشاعر « كثير بصفة العذرية ، لأن عزة - كما جاء فى أخباره - قد تنكرت له فغازلها على أنها امرأة أخرى . انظر ذم الهوى ص ٤٤٤ وما بعدها .

وإذا كان والد قيس بن ذريح قد وقف في حر الشمس بعد أن حلف لا يكره سقف بيت أبدا حتى يطلق لبني^(١) ، فإن والد عبد الله بن عجلان بلغه يوما أن ولده قد سكن السكر منه ، فعدها فرصة ، وأرسل إليه « فلما جلس مع أبيه وقد عرف أكابر العرب حاله فأقبلوا يعنفونه ويتناوشونه من كل مكان حتى استحي فطلقها^(٢) » ، وهكذا اختلف السبب بين العاشق الاسلامي ، والعاشق الجاهلي ، ولكن النتيجة واحدة ، فقد أحسن كل منهما لوعة الندم وعذاب الفراق ، وحاول التراجع وهيهات ، فمرض ، وذبح لابن عجلان شاة بإشارة من امرأة عجز ، ونزع قلبها ، كما حدث مع المجنون ... وقد التقى بصاحبه عند زوجها ، كما التقى المجنون بليلي في منازل ورد الثقي ، وماتا معا ...

فلماذا ضنَّ الانطاكي على ابن عجلان بصفة العذرية ، واعتبرها قصة حب عادية ؟ أغلب الظن أنه لاحظ البداية ، وكانت مشاهدة هند عريانة هي سبب التعلق بها ، ثم انه استطاع أن يكتم ويتزوج ... وهكذا لم يشفع له كل ما لاقى من عذاب بعد ذلك !

على أن تنزيه الحب عن الاعجاب الجنسي أو الاشتواء ، والرغبة في الاستمتاع بجمال الأنثى ، ظل بمثابة قضية نظرية ، أو موقف أخلاقي تقره الأعراف المتوارثة ، دون أن يوجه السلوك العام ، الذي تدفق في طريقه التلقائي ، ينظر إلى الحب على أنه نوع من التجاذب بين الذكر والأنثى يقوم على رغبة متبادلة في الاتحاد . وسيكون هذا الفارق بين التصور والسلوك ماثلا أحيانا في الفارق بين الحب والعشق ، وقد لا يقره فقيه مثل ابن داود ، ولكن سيقره بوضوح فقيه آخر مثل ابن حزم ، وسيعلى من شأنه ، من قبلهما ، رجل لا يسهل العبور به ، وهو الجاحظ .

وقد روى عن فضليات النساء ، وزوجات المشاهير ، في الجاهلية والاسلام ، أخبار وقصص ، تؤكد سيطرة النزاع الجنسي ، وتأثيره على العلاقة بين الذكر والأنثى ، ولم تكن احداهن ترى في ذلك مساسا بشرف معتدها أو سمعتها الخاصة مادامت تصير إلى من يحبها وتحبه بالزواج . وقد يزعجنا في عصرنا هذا أن نقرأ بعض الأسماء في صدر الاسلام مثلا ، فنجد المرأة قد تزوجت ثلاث مرات ، على التابع أو أكثر ، وليس هذا وفقا على عائشة بنت طلحة أو سكينه بنت الحسين ، انه أمر يتكرر كثيرا ، في حين أن مجتمعنا لا يتقبل مثل هذا العمل إلا بالنسبة لفئات معينة يتسامح الناس معها لأسباب متعددة .

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٨٣ .

(٢) تزيين الأسواق في أخبار العشاق ص ١٤٢ وتأمل وقوف الأب في الشمس لآكراهه على الطلاق ، وفي مراحل الاسلام الأول وقف بعض الآباء في الشمس لآكراه أبنائهم على العودة إلى الوثنية . أما انتهاز فرصة السكر فهو ما يوافق المجتمع الجاهلي !!

وباستطاعتنا الآن أن نقرأ هذه الأخبار ، وتأمل مغزاها :

* يروى صاحب « أخبار النساء » هذا الخبر : كانت هبة بنت عامر تحت عبد الله بن جدعان ، فمكنت عنه زماتا لا تلد ، فأرسل إليها هشام بن المغيرة : ما تصنعين بهذا الشيخ الكبير الذى لا يولد له ؟ فتولى له فليطلقك . فطلبت من زوجها الطلاق ، فقال : إني أخاف أن طلقتك تزوجى هشام بن المغيرة ! قالت له : فإن لك على ألا أفعل هذا . قال لها : فإن فعلت فإن عليك مائة من الأبل تحريمها ، وتسجين ثوبا يقطع ما بين الأخشين ، وتطوفين بالبيت عريانة . قالت : لا أطيق ذلك . وأرسلت إلى هشام فأخبرته ، فأرسل إليها : ما أهون ذلك ، وما يكن بك من ذلك ، أنا أيسر من قريش فى المال ، ونسائي أكثر النساء فى البطحاء ، وأنت أجمل النساء ولا تعلين فى عريك ، فلا تأتى ذلك عليه ، فقالت لآل بن جدعان ؛ طلقنى ، فإن تزوجت هشام فعلى ما قلت . فطلقها بعد استيثاقه منها ، فتزوجها هشام ، فحرق عنها مائة جزور ، وأمر نساءه فتسجن ثوبا يملأ ما بين الأخشين^(١) ، وعن الطوفان عريانة ، قال هشام : فأننا أسأل قريشاً أن تملى لك المسجد ، فتطوفين بعد الفجر بسدقة ولا يراك أحد^(٢) .

* وتكرر هذه القصة أكثر من مرة : يشعر الزوج بغييب الموت ، وتشتعل نار الغيرة من انتقال زوجته إلى رجل معين ، فيستحلفها أن تبقى له بالألأ تزوج من هذا الشخص بالذات ، فتحلف ، ثم يكون التحلل من اليمين - ويتم الزواج^(٣) !! هكذا حلفت فاطمة بنت القاسم بن على بن جعفر بن أبى طالب لزوجها حمزة بن عبد الله بن الزبير ، ثم خطبها طلحة بن عمر ، فتزوجته وعوضها ما قتلت من رقيق ومال . وحلفت أم هشام لزوجها عبد الرحمن بن هشام ، فلما انقضت عدتها تزوجت عمر بن عبد العزيز^(٤) . بل نجد هذا يحدث حتى فى علاقة السيد بالجارية أو القينة ، وقد حدث أن تخوف الهادى من أن تصير جاريته إلى أخيه الرشيد ، فحاول أن يحول دون ذلك ، ولكن هيهات !!

ويعطى أبو الفرج الأصفهاني أخبار عائشة بنت طلحة اهتماماً خاصاً ، ومن خلال ذلك نبين ملامح واتجاهات العلاقة العاطفية والسلوكية بين الرجل والمرأة فى مستوى هذه الطبقة

(١) أخبار النساء ص ١٤٨ .

(٢) أخبار النساء ص ١٠٤ ، ١٠٥ وانظر المامش أيضاً ، وانظر : كتاب القيان ص ١٥١

(٣) انظر مثلاً : أخبار النساء ص ١٤٩ ، والعقد الفريد ج ٦ ص ٩١ ، وسباق الخير يدل على أن فاطمة أنست ان هى تزوجت من قصده زوجها أن تصدق بكل ما تملك ، وتعتق من لديها من عبيد أو أماء ، وقد عوضها الزوج الجديد عن ذلك كله ، وانظر القصة أيضاً فى ذم الموى ص ٦٤٨ .

(٤) أخبار النساء ص ١٠٠ ، ١٠١ .

من أشرف قريش بالذات ؛ وهى من بنى تيم ، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر ، أما عائشة ، فكما يصفها الأصفهاني : كانت لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها مصعب (بن الزبير الزوج الثانى) فى ذلك ، فقالت : إن الله تعالى وصنى بميم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم ، فما كنت لأستره ، والله ما فى وضمة يقدر أن يذكرنى بها أحد .

ويروى قصة زواجها من أول أزواجها وكيف تمت ، وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، فيذكر أن عبد الله ذهب إلى عزة الميلاء - وهى امرأة يالفها الأشراف وغيرهم من أهل المروءات ، وكانت من أطرف الناس وأعلمهم بأمور النساء - فأخبرها أنه خطب عائشة بنت طلحة ، وأنه يريد أن تصف له ما استتر من جسمها ، فذهبت الميلاء إليها واحتالت حتى تمكنت من رؤيتها ، وعادت تصف حسننها ، وعيوبها أيضا !!

وحدث أن دعت يوما نسوة من قريش ، وكانت قد تزوجت بمصعب بن الزبير بعد وفاة عبد الله ، فلما جئنها أجلستهن فى مجلس نضد فيه الریحان والفواكه والطيب والمجمر ، وجاءت عزة الميلاء تطرب المجلس بغنائها ، فغنت فى شعر امرئ القيس :

وثغر أغر شتيت النبات لذيد المقبل والمنتم
وما ذقته غير ظن به وبالظن يقضى عليك الحكم

وكان مصعب قريبا منهن ومعه إخوان له ، فقام فانتقل حتى دنا منهن والستور مسيلة ، فصاح : يا هذه إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت .

وبعد أن قتل مصعب خطبها بشر بن مروان ، فقدم من الشام عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي (فهو تيمى مثلها) فبلغه ذلك ، فأرسل إليها مع جارية من جواريتها : يقرئك السلام ابن عمك ، ويقول لك : أنا خير من هذا المبسور المطحول ، وأنا ابن عمك وأحق بك ، وإن تزوجت بك ملأت بيتك خيرا ، فتزوجته . ولا يتردد الأصفهاني فى وصف ليلة الزفاف ، فيذكر كيف قدم عمر ، فوجد خوانا ممتدا فأكل كل ما عليه ، ثم صلى فأطال الصلاة ، ثم دخل على عروسه ، ونكفى بقول عائشة لزوجها الجديد فى صباح ليلة العرس :

قد رأيناك فلم نحمل لنا وبلوناك فلم نرض الخير

ويتوغل الأصفهاني فى وصف سلوكها الجنى مع أزواجها ، فينقل عن المدائنى قوله : قالت امرأة : كنت عند عائشة بنت طلحة ، فقبل لها : قد جاء الأمير فتنحيت ، ودخل عمر بن عبيد الله ، وكنت بحيث أسمع كلامهما ، فوقع عليها ، فجاءت بالعجائب ، ثم خرج ، فقلت لها : أنت فى نفسك وموضعك وشر فك تقملين هذا !! فقالت : انا نشهى

لهذه الفحول بكل ما حركها وكل ما قدرنا عليه^(١) . ويروى الجاحظ هذا الخبر بألفاظ أكثر صراحة وتحديدًا^(٢) .

ما الذى نريد أن ننتهى إليه من مثل هذه الأخبار ؟

نريد أكثر من شىء فى الحقيقة . وأول ما نهدف إليه أن ننفى أن تكون تلك الصورة المنتشرة فى الدراسات العربية عن الحب - وقد ألحنا إليها من قبل - ونعنى الصورة الشاحبة الحزينة المضمرة لليأس المتوقعة للاخفاق التى تجد راحتها فى التأمل والشكوى وعذاب الاحساس بالمعجز ، هذه الصورة التى لا تخلو من علامات العصائية ، والتى هى أكثر انتشارا على ألسنة الشعراء وأقلام الباحثين فى الحب ، ليست هى الصورة الوحيدة ، أو المتحكمة فى أخلاق الناس وسلوكهم ، مع التسليم بأهمية نشاط المخيلة القائمة على مجافاة الواقع والتسامى عليه ، تساميا هو ألصق بتلك الصورة الحزينة التى أشرنا إلى ملاحظها العامة . ولقد تكرر مشهد الزوج الشغوف بزوجته حتى تصير كل همه عند الوفاة ، وهو يعرف أنها جميلة ، وأنها موضع اعجاب ، بل يدرك بحسده من هو الشخص القادم إليها بعد رحيله ، لأنه يوازيها شرفا ، وليس يبعد أن يكون قد سمع عنه أكثر من ذلك ، كشيخف قديم ، أو تعلق حديث .

وتكثر الدلالات النفسية والاجتماعية فى أخبار عائشة بنت طلحة ، التى رفضت الحجاب ودافعت عن السفور ، وكانت جميلة وتعرف أنها كذلك ، وتتقاضى من أزواجها ثمن هذا الجمال فنونا من الدلال والتهيه ، ورغبة فى الشهرة وأن تكون حديث الناس ، وأن يتاح لها من الحركة الحرة فى لقاء الشعراء وأمثالهم ما يليق بظموح الشرف حين يتحلى بالجمال والثراء معا . ولقد كانت الدخاطبة - وكانت تسمى الدلالة - تقوم بدور يتجاوز ما تقوم به فى أيامنا ، وإن كان دورها قد انحسر أو انتهى الآن ، كانت ترى من المخطوبة ما ليس للخاطب أن يراه ، وتقدم له تقريرًا وصفيًا أمينًا بما رأت . وكان الزوج - على شرفه وعلو رتبته - لا يجد حرجا فى أن يظهر عواطفه علانية ، وأن يفقد صوابه متغزلا بزوجته فى مجلس أصدقائه ، بل أن يصطحب زوجته إلى خلوة فى وجود صديقتها وأن تسمع العجائب بينهما !! ولقد اخترنا هذه الأخبار من العصر الاسلامى - باستثناء ضباعة - فإنه العصر الذى شهد المحين العذرين وشهداء العشق . وهذا يعنى فى النهاية أن جميع أنماط الحب ومستوياته كانت موجودة ، متعايشة فى العصر الواحد وفى البيئة الواحدة ، بل أحيانا فى النفس الواحدة .

(١) الأغاني ج ١١ ص ١٧٦ وما بعدها .

(٢) رسالة : مفاخرة الجوارى والنلمان ص ١٢٩ .

وإذا كانت بعض القبائل قد شهرت بالعشق ، وبالموت حبا ، مثل عذرة ، فإن هناك قبائل أخرى قد شهرت بالكحاح ، وهم بنو الأذلغ ، وينسب إليهم من هذه صفته ، فيقال : أذلغى^(١) ، كما أن هناك قبائل قد عرفت بالجمال ، أو جمال نسائها على وجه التحديد ، جمال القدود أو العيون أو السيقان أو الأرداف ، وقد تغضب الفتاة لسمعة قبيلتها الجمالية ، فتدافع عنها بأن تكشف عن جسدها حتى تبهر وتقع . وهذا أبو نواس يروى حكاية نادرة حدثت له بمنقطع من أرض فزارة ، فالتجأه المطر مع صاحبه إلى خباء على بابه جارية مبرقة ، فحرض أبو نواس صاحبه أن يقول قولاً يجعل الفتاة ترفع البرقع ، فارتجل بيتين ذم فيهما ما يخفى البرقع من قبح وشناعة ، فغابت الفتاة قليلاً ثم عادت وقد كشفت البرقع وتغننت بخمار أسود فاهتز أبو نواس لحسنها ، ومن ثم راح صاحبه يحرض الفتاة أن تكشف المزيد فقطعت الفتاة عليهما الطريق وقالت :

لأننا أشبه بقول الشاعر :

منعمة حوراء يجرى وشاحها على كشح مرتج الروادف أمهضم
خزاعية الأطراف كندية الحشا فزارية العينين طائية الفم

وقد يتمادى أبو نواس في مزاعمه ، وهو ليس بثقة ، ومع هذا فإن للخبر دلالة الجمالية^(٢) .

الجاحظ .. والحب الطبيعي :

ونحن نقصد إلى الجاحظ قبل غيره للكشف عن طبيعة الحب ومفهومه كما يراه ، رعاية للسبق الزمني ، ولأنه الأكثر قرباً من تقديم مفهوم للحب يستطيع أن يحتوي هذه الأخبار التي قرأنا وعرفنا في الفقرة السابقة . ولسنا بحاجة إلى أن نكرر فنذكر بعقليته الجدلية وقدرته على الرصد والتقاط الملامح الدقيقة الفارقة ، وارتباط أوصافه وتحليلاته بالواقع المشاهد ، وبعده عن التحويل على التأمل والمثالية .

وآراء الجاحظ مبثوثة في ثلاث رسائل أشرنا إليها من قبل ، وفي تضاعيف كتاب « الحيوان » حيث يوضع الإنسان طرفاً في مقارنة مستمرة مع سائر المخلوقات . وهذا الارتباط بالواقع الاجتماعي وحقيقة التكوين الفطري للإنسان ، ووضعه موضع الاعتبار في تحليل عاطفة الحب ورصد ملامحها ، هو الذي جعلنا نطلق عليه « الحب الطبيعي » ، فلم نجعله في مقابل الحب الشاذ أو غير السوي ، وإنما قصدنا شيئاً يقترب من مفهوم « الطبيعية » في مذاهب الأدب ،

(١) جاء في لسان العرب : ذلغ الرجل ذلغاً : تشققت شفتاه ، ورجل أذلغ : غليظ الشفة ، وبنو الأذلغ : حمى من عامر . انظر لسان العرب - مادة : ذلغ .

(٢) أخبار النساء ص ١٥٨ - ١٦١

حيث يكشف الأديب عن الدوافع ، ويصور الأشياء دون محاولة تجميلها أو إخفاء جذورها مهما كانت فجة ، أو منافية للأخلاق أو الأعراف الاجتماعية .

ويبدأ الجاحظ أكثر من مرة بداية جريئة ، يواجه الوقائع والألفاظ بصراحة ومباشرة ، لا يكتفى أو يورى . وحين يتطرق إلى علاقة الذكر بالأنثى يقرر أن إباحة المتعة دون قيد هي الأصل ، فالفلنك وجميع ما تحتويه أقطار الأرض ، وكل ما تقله أكنافها للانسان خول ومتاع إلى حين . إلا أن أقرب ما سخر له من روحه وألفظه عند نفسه « الأنثى » فإنها خلقت له ليسكن إليها ، « ولولا المحنة والبلوى فى تحريم ما حرم وتحليل ما أحل ، وتخليص المواليد من شبهات الاشتراك فيها ، وحصول الموارث فى أيدي الأعقاب ، لم يكن واحد أحق بواحدة منهن من الآخر ، كما ليس بعض السوام أحق برعى مواقع السحاب من بعض ، ولكان الأمر كما قالت المجوس : إن للرجل الأقرب فالأقرب رحماً وسبباً منهن ، إلا أن القرض وقع بالامتحان فخصّ المطلق ... وكل شيء لم يوجد محرماً فى كتاب الله وستة رسول الله ﷺ فمباح مطلق ، وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياس ما لم نخرج من التحريم دليلاً على حسنه ، وداعياً إلى حلال^(١) » .

إن الجاحظ ، فى العلاقة بين الذكر والأنثى ، ينكر الوازع الطبيعى فى وجود المحارم ، ويرى أن الشيوعية الجنسية هي الأصل ، كما أنها الأصل فى كل ما تحويه أقطار الأرض من الأشياء المادية ، ويرى أن ما حرم من التكاثر إنما حرم بالشرع وليس بالطبع . ولقد أدرك تناقضه مع مبدأ من أهم مبادئ الاعتزال ، وهو القول بالتحسين والتقبيح العقليين ؛ فكان هذا الاستدراك فى آخر الاقتباس إذ أرجع الأمر إلى الدليل ، وهو ثمرة النظر العقلى ، وليس مجرد استحسان الناس أو استقباحهم ، وهما تقليد سلوكى أو عادة لا دخل للعقل فيها . ومع هذا فإن الجاحظ سيلاحظ أن بعض الطيور الراقية تحرم بعض العلاقات حين تعرف الحب ، فتخص ذكراً واحداً بالخطوة وتمتنع على غيره^(٢) .

ويطيل الجاحظ الاحتجاج لإباحة النظر ، ويراه حلالاً ، إذ أثر مجالسة أبناء الصحابة للنساء لتبادل الأحاديث ، فلا محادثة إلا ومعها مالا يحصى عدده من النظر ، وكان خليفة المسلمين يجلس وجارية تقف على رأسه تذب عنه وتروحه ، وحيث يحق للمرأة المنعسة أن تبرز للرجال فإن ما يحل لها منعسة لا يحرم عليها شابة « ولكنه أمر أفرط فيه المتعدون حد الغيرة إلى سوء الخلق وضيق العطن ، فصار عندهم كالخلق الواجب^(٣) » وكذلك يستشهد بحل النظر إلى الرقيق

(١) كتاب القيان - ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) الحيوان ج ٣ ص ١٦٧ والمثل عن حمزة أنثى تأت طويلاً على أفرانها وأحفادها وعاشت لذكر واحد ، ثم خضعت حين قام أحد الخدم بترحيل الذكر ، فتألمت شهراً ، ثم سكنت .

(٣) كتاب القيان - ص ١٥٧ .

للشراء والبيع ، وهم بشر ، وللناس فيهم مآرب ، وانتقاص حريتهم لا يعنى عدم تعلق الشهوة بهم ، فربما كان العكس هو الصحيح .

ويرصد الجاحظ اختلاف التقاليد والأعراف الاجتماعية بين عصر وعصر ، وكيف يختلط ذلك بمفهوم الخل والحرمة : فقد كانوا لا يرون بأساً أن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلا الموت ما دام الرجال يريدونها . وهم اليوم يكرهون هذا ويستسمجونه في بعض ، ويعافون المرأة الحرة إذا كانت قد نكحت زوجاً واحداً ، ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم ، ويعيرونها بذلك ، ويتحفظون الأمة وقد تداولها من لا يحصى عدده من الموال . فمن حسن هذا في الاماء وقبحه في الحرائر ! ولم لم يغاروا في الاماء وهن أمهات الأولاد وحظايا الملوك ، وغاروا على الحرائر . ألا ترى أن الغيرة إذا جاوزت ما حرم الله فهي باطل ، وأنها بالنساء لضعفهن أولع ، حتى يغرن على الظن والحلم في النوم . وتغار المرأة على أبيها ، وتعادى امرأته وسريته^(١) .

ويهتم الجاحظ - في كتاب الحيوان بخاصة - بالأعضاء الجنسية وتأثيرها على الهيئة وعلى السلوك العام ، فيصف ما يترتب على الخضاء من تغيرات بدنية ونفسية ، فصوت الخصى يتغير حتى لا يخفى على من لا يعرفه ، وإذا خصى قبل انبات الشعر لم ينبت ، وإذا كان قد نبت تساقط كله إلا شعر العانة ، ولا يعرض ذلك لشعر الرأس ، غير أن شعر الرأس عنده يكثر وينسدل وينقطع على طريقة شعر المرأة . وإذا مشى الخصى يشد وقع رجله على أرض السطح ، حتى لو تفقدت وقع قدمه وقدم أخيه الفحل الذي هو أعجل منه لوجدت لوقعه ووطئه شيئاً لا تجده لصاحبه ، والانسان إذا خصى طال عظمه وعرض عكس الحيوان إذا خصى ، وتنن عرقه عكس الحيوان والطير أيضاً ، والخصى أكثر ذكاء من أخيه التوأم الذي لم يجر عليه الخضاء ، وأجود للخدمة ، ولكن في الحدود المألوفة ، فليس في الخصيان حكمة أو قدرة على الابتكار^(٢) .

ويهتم بالسفاد وأثره على أعمار الحيوان ، فالعصافير أقصر الطيور عمراً لأنها أكثر سفاداً ، والجمل على العكس من ذلك ، أما الانسان فإنه يجمع بين الفضيلتين^(٣) .

ويرصد الجاحظ ألوان العلاقات الجنسية الشاذة . في الانسان^(٤) والحيوان^(٥) كما يرتبط بين عفة السلوك الجنسي وسلامة العاطفة وتكامل البناء الأخلاقي ، فيقول : « وأما أنا فقد رأيت

(١) السابق ص ١٥٨ .

(٢) الحيوان ج ١ ص ١٠٦ - ١١١ .

(٣) الحيوان ج ٥ ص ٢١٨ .

(٤) الحيوان ج ٧ ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) الحيوان ج ٣ ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

الجفاء للأولاد شائعا فى اللواتى حملن من الحرام . ولربما ولدت من زوجها ، فيكون عطفها وتحننها كتنحنح العفيفات الستيرات ، فما هو إلا أن تزنى أو تقحب فكأن الله لم يضرب بينها وبين ذلك الولد بشبكة رحم ، وكأنها لم تلده^(١) . فهذا الجفاء وتلك العاطفة المضطربة لا تعود إلى ولدها من الزنا وحده ، بل لأولادها جميعا !!

وكأن معاندة الطبع فى وجوب العفة تستدعى معاندة الطبع فى الحذب على الولد ، وهما ثمرة شعور واحد وصلة واحدة ، والفرق قائم فى التوافق مع الشرعية أو التمرد عليها .

ويرصد الجاحظ اختلاف النشاط الجنى بين الذكر والأنثى : فالغلام أحدا ما يكون وأشيق وأحرص ، عند أول بلوغه ، ثم لا يزال كذلك حتى يقطعه الكبر أو اصفاء أو تعرض له آفة . ولا تزال البجارية من لدن ادراكها وبلوغها على شبيه بمقدار واحد من ضعف الارادة . وكذلك عامتهن ، فإذا اكتهلن وبلغت المرأة حد النصف فعند ذلك يزداد ميلها ، عكس الرجل^(٢) .

وفى « كتاب القيان » ، ومن خلال جدل مفترض بين مبيح النظر إلى المرأة ومنكره ، يرسم الجاحظ صورة لحياة القيان فى بغداد ونشاطهن الجنى الخفى ، المستتر بالظن ومجالس السماع وعقد صفقات شراء هؤلاء القيان ، وسيستكمل هذه الصورة مستفيدا من هذه القدرة الجدلية فى رسالته الأخرى « مفاخرة الجوارى والغلمان » ، ولا نستطيع أن نرمى الجاحظ بالتحامل على هذه الطائفة التعسة التى كانت تقدم للمتعة ، وكما يقرر هو نفسه أنه تجرى المهادة بهن ، وهن نساء ، كما تجرى بالمتاع . لقد كان الجاحظ يرصد الواقع مضمنا هذا الوصف الأسباب الصانعة له والمؤثرة فيه دون أن يقول ذلك صراحة ؛ فالتقية مجرد متاع ، وهى مذعنة بالضرورة لمن يصل إليها ، بأى طريق كان الوصول « فأكثر من بالغ فى ثمن جارية فبالعشق ، ولعله كان ينوى فى أمرها الرية ، ويجد هذا أسهل سبيلا إلى شفاء غليله ، ثم تعذر ذلك عليه فصار إلى الحلال وإن لم ينوه ويعرف فضله^(٣) » . ومن هنا جاء تعريف الجاحظ للعشق بأنه داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، وأنه يصعب علاجه ، متأثرا بالواقع المشاهد فى عصره ، إذ جاء التعبير باصابة الروح موحيا بالمرض والاعتلال ، وليس السمو والمبالغة فى التركيز على الفكرة أو المعنى .

ولا يحق لنا أن نعطى الجانب الفنى الرفيع ، فى صياغته وصدقه ودقته ، فلقد وصف الجاحظ عشق القيان ، وحيلهن فى الإيقاع بعشاقهن ، وصفا نجد آية صدقه ماثلة فى قدرته على اختراق

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) الحيوان ج ٣ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤ .

(٣) كتاب القيان - ص ١٦٥ - وهذا يشبه ما نشاهد فى أيامنا من زواج بعض الأثرياء « بنجوم » السينما لفترات قصيرة ، ولم يكن الزواج قبلا - من الأصل - للاستمرار !!

العصور والنفوذ إلى عصرنا ومجتمعنا لنجد الصورة ذاتها ، ونفس الأساليب ، ونفس الدوافع لا تزال تمارسها قطاعات من النساء لسن من الجوارى بالقانون وإن حملن أخلاق الجوارى بالطبيعة ، ولسن من القيان وإنما يدعوهن المجتمع « فنانات » ولكنهن استمرار للوظيفة القديمة ، لا يحملهن عليها رق الجسد وحده ، وإنما رق الروح قبل كل شيء .

« ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن ، وسكون النفوس إليهن ، وأنهن يجمعن للانسان من اللذات مالا يجتمع في شيء على وجه الأرض^(١) » ، وإذا كان لفظ اللذة يرتبط عند الجاحظ بالحواس ، فإن القينة ترضى ثلاث حواس : أولها النظر إلى حسننها ، والثانية سماع غنائها ، والثالثة اللمس بما يشير من الشهوة والحنين إلى الباه .

إلى هنا والأمر بين القينة وعاشقها أمر مشاركة في الغناء والسماع والمتعة المتبادلة .. ولكن الجاحظ لا يلبث أن يهبط بالقينة إلى مستوى تجارة المتعة : إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ، ولا تناصح في ودها ؛ لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الشرك للمتربطين لبقعوا في أنشطتها ، فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب عند شربه ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . فإذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه ، وأنه قد سقط في الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو إليه هواء ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعتها ، وأنها لا تريد سواه ، وأنها لا تريده لماله بل لنفسه .

وحين يتم لها ذلك تبدأ القينة المرحلة الثانية بعد أن تمكنت من صاحبها ، إنها في طريقها للاستيلاء عليه تماما ، ومن ثم تأخذ في إخضاعه لحالات نفسية متناقضة ، فتجنى عليه الذنوب حيناً ، وتحول بينه وبين صاحباتها ، وتجافى أهله ، وحيناً تقبل عليه فتسقيه أنصاف أقداحها ، وتغازله بأن تأكل نصف تفاحة تقدمها إليه ، وقد تعطيه عند انصرافه خصلة من شعرها أو قطعة من وشاحها ، ثم تبعث إليه بالهدايا ، وتنقش اسمه على خاتمها ، وتخبره أنها لا تنام شوقاً إليه ، وقد تعتزل صناعة الغناء بدعوى الحرص عليه « وربما قادها التمويه إلى التصحيح : وربما شاركت صاحبها في البلوى حتى تأتي إلى بيته ، فتمكث من القبله فما فوقها ، وتقرشه نفسها إن استحل ذلك منها ... وأكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الغدر والحيلة في استنزاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون من الاجتماع ، ويتغايرون عند الالتقاء ، فبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالآخرى ، وتغمز هذا بذاك ،

(١) كتاب القيان ص ١٧٠ .

وتعطى واحداً سرها والآخر علانيتهما ، وتوهمه أنها له دون الآخر ، وأن الذى تظهر خلاف ضميرها . وتكذب إليهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقيين وحرصها على الخلوة له دونهم .

فلو لم يكن لابليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو إليه ، ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان ، لكفاه .

وليس هذا بدم لمن ، ولكنه من فرط المدح . وقد جاء فى الأثر : « خير نساءكم السواحر الخلّات »^(١) .

القينة إذن - عند الجاحظ - شيطان جميل لا يمكن مقاومته ، لعبته استنزاف أموال العشاق ، وسلاحه الجنس والغناء ، ولكنها على الرغم من ذلك ، ضحية ، ليس باستطاعتها أن تمتنع عن خطيئة الزنا ، كيف وهى بين بائع ومشتري يدفعانها إلى ذلك ، « وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكسب الأهواء ، وتعلم الألسن والأخلاق بالنشأ ، وهى تنشأ من لدن مولدها إلى أوران وفاتها بما يصد عن ذكر الله من هو الحديث ، وصنوف اللعب ، وبين الخلاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة »^(٢) .

هكذا تبدو القينة ضحية نظام اجتماعى طبقى مترف ، ينظر إلى المرأة كوسيلة للمتعة الجنسية ويحتسبها ويحيطها بالنعيم ، بل ويثقنها لهذه الغاية أكثر من غيرها . بل يذكر الجاحظ صراحة فى آخر هذه الرسالة أن تجارة القيان هى تجارة جنس تستر على الزناتين ، وتحايل على الشرع ، فالرجل الثرى يشتري الجارية ، يستمتع بها حتى يستوفى رغبته ، فاذا رغب عنها أعادها إلى المقيم (مربي القيان) بثمان أقل مما اشتراها ، فيكون فرق السعيرين هو أجر الزنا الذى احتسب بعقد الشراء « وهل قامت الشهادة بزناء قط فى الاسلام على هذه الجهة ؟ »^(٣) .

وتجلى سخرية الجاحظ ، سخرية ممزوجة بالخزن النبيل ، حين يشير إلى أن القينة التى تحاول أن تحافظ على عفتها وتمنع يد اللامسين والعابثين ، لن يكون باستطاعتها أن تقص صناعتها ، فالقائمون على فن الموسيقى والغناء لن يمنحوها أسرار الصناعة إلا إذا أباحت نفسها لهم . ويتصاعد أسى الجاحظ حين يوازن بين شخصه ، وهو العالم الذى يقصد من الآفاق ، واثينة الجميلة ، ويكشف ساخراً عن القدر المشترك بينه وبينها ، وكل منهما يقصد ، ويزار ولا يكلف الزيارة ،

(١) كتاب القيان ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) كتاب القيان ص ١٧٦ .

(٣) كتاب القيان ص ١٨٠ .

ويهدى إليه لا تقتضى منه الهدية ، ويأتى الفرق الفادح فى معاناة الحياة ، وأرق الليل وتصدع الكبد ، ثم فى حجم الهدية ووجه الاستمتاع بها ، وهنا سيكون تاجر الثياب أكثر فوزا بمتاع الحياة لا شك ، فكل ما يقدم لجواريه ينتهى إلى جيبه بالطبع !!

وفى « مفاخرة الجوارى والغلمان » تستمر مواجهة الواقع السلوكى الاجتماعى فى مجال الحب ، والعلاقات الجنسية ، بنفس الصراحة التى لمسانها من قبل ، والتى تهدف إلى تعرية التأدب المصطنع ، وإن كان يقرر فى بداية رسالته أن لكل نوع من العلم أهلا يقصدونه ويؤثرونه ، وهذا يعنى أن اللغة المكشوفة التى كتب بها رسالته لم يوجهها إلى العامة ، بل إلى أهل هذا العلم ، ويشير إلى ما أنشده عبد الله بن عباس من شعر يتضمن ألفاظا جنسية صريحة ، وهو محرم فى المسجد الحرام !! ثم يقول :

« وبعض من يظهر النسك والتششف إذا ذكر ... و ... تقزز وانتقبض . وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من المعرفة والكرم ، والنبل والوقار ، إلا بقدر هذا التصنع^(١) » ، ويذكر كيف كان فضلاء الصحابة لا يتخرجون من استعمال الألفاظ الجنسية الصريحة : « وإنما وضعت هذه الألفاظ ليستعملها أهل اللغة » !! والحق أن الحديث الذى استدلل به ، وبعض ما نسب إلى صحابة الرسول مرتبط بمواقف انفعالية يغلب عليها طابع مجابهة الخصم والرغبة فى تجريجه ، ومن ثم فإن ذلك ليس حجة للقول بأن من حق هذه الألفاظ المشينة أن تتداول فى غير مجال التعبير الفنى لدواعيه الملحة ، كما حدث فيما أنشد ابن عباس من شعر ليقرر المبدأ من الوجهة الشرعية وليس من الوجهة الاجتماعية الأخلاقية .

وهذه الرسالة القائمة على الحوار الجدلى بين « صاحب الغلمان » و « صاحب الجوارى » ، هى فى حقيقتها حوار بين من يدافع عن المثلية الجنسية ، ومن يفضل الأنثى ، وكل ما عدا ذلك من حجج وأوصاف إنما أراد بها الجاحظ أن يخفف به من وقع التوجه المباشر لتصوير وتبرير هذا الانحراف الخلقي من وجهة نظر القائلين به .

لقد احتج صاحب الغلمان ، بأن الغلام مثال للحسن تشبه به المرأة ، وأنه ورد فى القرآن جزءا من نعيم الجنة ، وأنه لن يدخل الجنة إلا أمرد ، وإذا كان قدماء الشعراء قد تغنوا بحمال المرأة ، فلائهم أعراب أجلاف ، ولم يروا غلمان هذا العصر .. إلخ واحتج صاحب الجوارى بأن المرأة هى الخور العين ، وأن الزواج سنة ، وأن ريح المرأة أطيب إلخ^(٢) .

ولسا نقول بأن الجاحظ يدافع عن المثلية الجنسية ، ولكنه عاش عصر الشذوذ ، ورأى انتشار الغلمان والقيان ، وكيف غصت أنحاء بغداد بهم ، وكيف ازدحمت المجالس بأخبارهم

(١) مفاخرة الجوارى والغلمان ص ٩٢ .

(٢) مفاخرة الجوارى والغلمان ص ١٠٤ .

وما قيل فيهم من أشعار ، فالتفات الجاحظ إلى هذا الأمر هو التفت إلى ظاهرة من ظواهر العصر ، يأتى عليه حسه البقظ واهتمامه بالإنسان ، وبالحيوان فى داخل الإنسان ، وبقله المتسائل المجادل أن يهملها وكأنها لم تكن ، مع خطر أثرها ، وظهور هذا الأثر فى السلوك العام ، وفى المقاييس الأخلاقية ، وفى فنون الأدب على اختلافها^(١) .

ويعتبر كتاب « المحاسن والأضداد » بمثابة تطبيق فنى لآراء الجاحظ فى العشق ، فهو داء يصيب الروح ، فيشعل فيها شتى الرغبات الخيرة والشريرة حسب طبائع الأشخاص وظروف التنشئة وفرص العلاقة وأماكن الحركة ، ويربط الجاحظ بين العشق وحدة الخاطر وقدرة البديهة والجرأة على رفض العرف الشائع ونفاذ الحيلة ، وهكذا سنواجه أحياناً من الشعر المكشوف للشواعر والقيان الماجنات ، كما سنصادف كثيراً من الإجابات المسكتة تلقى على البديهة ، كما سنجد العلاقات الشاذة فيما بين النساء ، ومحاسن الغدر والمكر ، وسنجد مساوئ ذلك أيضاً . ولسنا نحب أن نتوسع فى الاقتباس من هذا الكتاب ، فنحن لا نثق فى نسبة كل ما فيه إلى الجاحظ ، إذ لا يعكس خصائص أسلوبه واتجاه فكره ، وإن استهدى اتجاهه العام فى عناوين مسائله ، ففى النسخة المتوفرة بين أيدينا تداخل واستطراد على أسلوب « ألف ليلة » فى بعض القصص ، وفى بعض آخر يتجلى أسلوب الحكاية الشعبية ، وهو أمر تنفيه طبيعة الجاحظ العقلية ، بل يقسم كسرى فى إحدى هذه القصص بعهد الله وميثاقه وذمة أنبيائه ، ويكتب بخطه عهداً يبدو بالبسملة !! ومهما يكن من أمر فإن الاتجاه العام لهذه الحكايات الكثيرة لا يخرج فى إطاره عن تلك الآراء والتحليلات الجريئة للعواطف البشرية ، وبخاصة فيما يتعلق بالجوارى وطموحهن وحيلهن ، ويكفى ما كتبه عن « الخيزران » أم الهادى والرشيد ، وإشارته إلى ما حلمت به فى صياها المبكر ، ليؤكد رأيه . وخلاصة القول أن الجاحظ كتب عن العشق ، فى مستواه الذى يلهب الجسد ويثير الدماء ، ويدفع إلى تجاوز السوية والاعتدال ، ليس فى طريق السمو ، بل فى طريق ارواء الغرائز وإشباع الهوى ... لقد كتب عن العشق البشرى ، بكل ما يتعلق به من ميل دنيا ، ولم يكتب عن الحب ، ومن ثم لم يكتب عن العشق فى مستواه الرفيع ، حين يتحول الشعور إلى فكرة ، وعقيدة ، وحلم يستأثر بالنفس ، ويصير غاية فى ذاته ، وتهون دونه كل لذائذ الحياة .

ابن حزم والتوازن الرهيف :

حين يكون الحب هو القضية فإن « طوق الحمامة » هو الكتاب المفضل لدى الدارسين ، ولم يحظ كتاب فى الحب بهذا القدر من الاهتمام وإعادة النشر والتحقيق وكتابة الدراسات

(١) وقد ظهر أثر كتابات الجاحظ واضحا فيما تلاه من عصور ، فنقل عنه صاحب « مازة الأحباب ومنازل الألباب » وعقد صاحب « رشد اللبيب » بابا فى المفارقة بين الجوارى والغلمان . انظر المخطوطتين .

حواله ، ولعل ابن حزم ، ففيه الأندلس الظاهرى ، قد نال به من الشهرة ما لم يناله بكتاب آخر ، على تعدد كتبه ، وخطورة ما اقتحمت من قضايا العتيدة والشرعية .

وهذه الشهرة التى نالها الكتاب وصاحبه ترجع - فى رأينا - إلى أن ابن حزم قد استطاع أن يحقق فى كتابه من التوازن الدقيق ما عجزت عنه كتب أخرى سبقته أو لحقته فى نفس موضوع الحب ، فطور بعضها فى طريق اختيار النصوص الشعرية ، وسردها مع قليل من التعليق ، وملأت قصص العشاق والزهاد كتباً أخرى ، قد تجد فيها المغزى والدلالة بإعمال الفكر والاستنباط ، وترهل بعض ثالث فى طريق الاستطراد وتصيد الغرائب دون منهج أو هدف محدد . وكتاب « الزهرة » نموذج مناسب للانحراف نحو الأدب ، أما « مصارع العشاق » فهو مثال لتسجيل القصص وحكاية النوادر ، ويشاركه « ذم الهوى » فى خاصيته تلك ، أما « تزيين الأسواق » فهو خير ما يعكس ضخامة الحجم وضياح الهدف ، إلا أن يكون الهدف هو الاستطراد حول الحب والعشق بشكل عام .

أما التوازن الذى تحقق فى « طرق الحمامة » فيتجل فى ثلاثة محاور أساسية :

أولها : التوازن بين الذات والغير ، أو : الأنا والآخرين .

والثاني : التوازن بين حاجات الجسد وتطلعات الروح .

والثالث : التوازن بين رعاية الواقع المباشر ، وتجاوز هذا الواقع بشيء من التأمل الفلسفى .

وهذه المحاور الثلاثة يمكن أن تعتبر - فى نهاية الأمر - جوهر مفهوم الحب عند ابن حزم ، وسنرى إلى أى مدى توافق هذا المفهوم ، أو اختلف مع آراء سابقيه .

وبالنسبة للمحور الأول القائم على توازن الذات والموضوع ، نجد ابن حزم ، وقد اطلع على « الزهرة » لا ينحو منحاه فيعتمد على الاقتباسات الشعرية ، وإنما يجعل ذاته وتجربته الخاصة هى البداية ، ثم يوسع دائرة الذات ، فيضم إليها تجارب معاصريه ممن لاحظهم أو سمع منهم بشكل مباشر ، ولكنه يحسّر أن « الأنا والآخرين » لن تستوفى أبعاد التجربة الإنسانية فى الحب ما لم يختار شخصيات مختلفة النوع (ذكورا وإناثا) مختلفة الأعمار ، مختلفة الإدراك ، مختلفة الموقع الاجتماعى ما بين أحرار وعبيد : جوار وقيان ، وإن ظل حبس طبقة المترفة ، لم يهبط إلى قطاعات المجتمع الأخرى ، كما ظل ملتزماً بموقعه الفقهى ، فأشار إلى أمثلة من التوراة ، لكنه لم يشفعها بملاحظات أو تحليلات عن معاصريه أو مواطنيه من غير المسلمين .

ومن الحق ما لاحظته جارسيا جومس أن ابن حزم يهتم فى كتابه هذا بالإنسان ، وقلما يعنى بالكتب^(١) ، ولكنه الإنسان فى حدود ما قرره ، وقد رفض منذ البداية أخبار الأعراب

(١) دراسات عن ابن حزم وكتابه طرق الحمامة ص ٢٩٨ .

والمتقدمين ، وتعليله لرفض التعويل عليهم بقوله : « فسيلهم غير سبيلنا » قد يشعر بالزراية عليهم والاستهانة بهم ، ولم يكن ابن حزم بعيداً عن مثل هذا الشعور ، ولكن الشمرة الإيجابية لرفض الاعتماد على الرواية تتجلى فى البديل : « والذى كلفتني لابد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي ، وأدركته عنايتي ، وحدثنى به الثقات من أهل زمانى » ؛ فكأن ابن حزم يضع أساساً مهماً ، وهو أن التجربة العاطفية فردية فى جوهرها ، ولا تتكرر ، وإن تشابهت حكايات المحبين ومواقف العشاق فهو الشبه الخارجى ، ولا مفر من الوقوف عند كل حالة بذاتها ورعاية ملاساتها ، وإذا صح ذلك ، وهو صحيح ، فمن باب أولى سيختلف معنى الحب وطرق التعبير عنه من عصر إلى آخر ، ومن هنا يظهر عجبه عندما يقرأ أن نساء الأعراب لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لمن حتى يشتهر ، ويكشف حبه ، ويقول : ولا أدرى ما معنى هذا ، على أنه يذكر عنهن العفاف ، وأى عفاف مع امرأة أقصى منهاها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى ؛ وإذا يذكر قتل أحمد بن مغيث واستئصال أسرته لتنزله بإحدى بنات الخلفاء ، فإننا نذكر تغزل أكثر من شاعر مشرقى بآبنة معاوية ، وحيله المختلفة لتكذيب الغزا دون أن يركب الشطط . هكذا سيختلف حال المحبين ، وتبقى حقيقة الحب الخالدة ومن ثم فإن التعويل على الثقافات من أهل زمانه ، اعتراف بأثر الزمن والتطور الاجتماعى ، واعتراف باختلاف البيئات وأثر هذا الاختلاف على العلاقات العاطفية ، ولهذا لا نجد فى كتابه أمثلة من المشرق ، ولم يذكر ابن داود إلا ليخالفه فى تصور ماهية الحب وأسبابه البعيدة^(١) ، ومن هنا تتكرر فى كتابه : « وعنى أخبرك » و« لند علمت » و« أنى لأعلم » و« لقد شاهدت » فضلاً عن القطع الشعرية المتناثرة على مساحة الكتاب ، وكلها له ، وسواء كان يدلى بتجربته المباشرة ، أو ينقل عن بعض محدثيه فإن درجة حضوره فى الإقناع بمفهوم الحب وأنواعه وحيله واضحة جداً ، ولكن ليس بالدرجة التى يمكن أن يوصف بها « طوق الحمامة » بأنه ترجمة ذاتية لمؤلفه ، فإن هذه الذات كثيراً ما كانت تتوارى خلف موضوعية التجربة العاطفية فى استقلالها حتى عن شخص المباشر لها ، فى نموها ومراحلها وتحليل جوانبها المختلفة .

وإذا كانت كلمة « العذرية » لم ترد فى كتاب ابن حزم ، ولم يعن بحب المتصوفة ومن على شاكلتهم ممن يعتبر الحب ضرباً من الحرمان يظهر الروح ، فإنه لا يوضع مع كتابات الجاحظ فى نفس الموقع .. لقد أعطى حاجات الجسد قدرها ، ولم يسخره الواقع ويدفع به فى تياره

(١) هناك اشتاء طفيف لا يخل بهذا الملح العام ، فى إشارته إلى نزار بن معد صاحب مصر وبعض فقهاء المدينة (ص ٢٠ ، ٢١) وانظر المرجع السابق ص : ٢٥ ونضيف إليه إشارة ابن حزم إلى ما كان بين أنى نواس والأميين ، الذى يدعوه : محمد بن زيدة ، والنظام رأس المعتزلة وغيرهما ، انظر الطوق ص ٦٣ ، ١٧٠ وهذا مما لا يختص بالساء .

فينسى واجب العفة وحق الوفاء ، هذا فضلاً عن أن « الواقع » الذى يستمده ابن حزم يختلف كثيراً عن الواقع الذى يصفه الجاحظ ، ومن هنا جاءت نظراته عن الحب بعيدة عن التهويم والتأمل المثالى بعدها عن الخضوع للشهوة واستعباد الجسد وسطورة الغريزة ، جاءت مرتبطة بالواقع والقدرة على ملاحظته وتحليله . من ذلك مثلاً فكرته عن الوفاء ، وعن العفة ، وهذه الفكرة صادرة عن تصوره للطبيعة الإنسانية ، وتكوينها من عناصر الخير والشر : « وإني لأسمع كثيراً ممن يقول : الوفاء فى قمع الشهوات فى الرجال دون النساء ، فأظيل العجب من ذلك ، وإن لى قولاً لا أحول عنه : الرجال والنساء فى الجنوح إلى هذين الشئيين سواء . وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب ، وطال ذلك ، ولم يكن ثم من مانع إلا وقع فى شرك الشيطان ، واستهوته المعاصى ، واستغزه الحرص ، وتغوله الطمع . وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ، حتماً مقضياً ، وحكماً نافذاً لا محيد عنه البتة » . وهذه النظرة الواقعية للسلوك الإنسانى ، ونزوع الذكر إلى الأنثى ، وتشوق الأنثى للذكر ، لا تحول بينه وبين الإيمان بوجود العفة ، ووجود الصلاح فى الرجال والنساء على حد سواء ، ولكن بالشرط الذى سبق ، وهو البعد عن دوافع الشهوة : « وشئى أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى ما رأيت قط امرأة فى مكان تحس أن رجلاً يراها ، أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأنت بكلام زائد كانت عنه فى غيبة ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك ، ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها ، لاثناً فيها ، ظاهراً عليها لا خفاء به ، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة ، وترتيب المشى ، وإيقاع المزاح عند خطور المرأة بالرجل ، واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس فى كل مكان » .

ويتهى ابن حزم من هذه الملاحظات والتحليلات الدقيقة إلى تقرير رأيه فى معنى الصلاح ، ويرفض التفسيرات الشائعة الجانحة إلى التطرف فى معنى هذه الكلمة ، « والصحيح فى حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هى التى إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أسكت . والفاسدة هى التى إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب ، والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات » .

فهذا كلام ليس فى الحب ، وإنما فى السلوك الجنسى ، وتوقى الخطيئة الجنسية على التحديد ، وقد كذب رجل لمجتمع الرجال فيه قوامون على النساء ، ولهذا يسند إلى الرجل مهمة ضبط المرأة ، دون أن يعطى المرأة نفس الحق . ونبه هنا أيضاً إلى أن قصص الحب الماثورة تهتم عادة

بالحب دون المحبوب ، فأخبار ليلي لا يمكن أن تقاس إلى أخبار قيس ، وكذلك الأمر بالنسبة لجميل وبثينة ، ومن على شاكلتهما ، وسنرى أن الحب هو محور الاهتمام دائماً ، وقد يعلل ابن داود ذلك - كما سنرى أيضاً - أنه وحده يلزمه الوفاء إذ هو المتعلق المقبل اختياراً أو اضطراراً ، أما المحبوب فإنه لا حيلة له في أن صار محبوباً ، ومن ثم لا يلزمه شيء ، فهو مجرد حافز أو مشير ليس غير ، أما ابن حزم فإنه يرى ذلك أيضاً ولكنه يقرر المبدأ العام أولاً : « وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وهذا فرض لازم ، وحق واجب على المحب والمحبوب ، لا يحول عنه إلا خبيث المحتد ، لا خلاق له ولا خير عنده » . ورعاية هذا المعنى فإن أخباره لا يلعب فيها المحب الدور الأوحد ، أو الأساسى دائماً ، وإنما يأخذ فيها المحبوب مكاناً بارزاً ، وإيراداً واضحة ، حتى وإن كان المحبوب جارية مملوكة ، يمكن إجبارها أو التخلص منها .

وإذا كانت واقعية النظرة إلى الحب قد هدت ابن حزم إلى أن الحب لا يقوم إلا بين اثنين ، وأنها متشابهان رغبة وتطلعاً ، فإن هذه الواقعية ذاتها جعلته يفرق بين غرائز الأنثى وتوجهاتها وبين غرائز الرجل واهتماماته ، وهذا تابع لتوزيع العمل فى النظام الاجتماعى ، وحرية الحركة ، ودرجة التشدد أو التسامح الأخلاقى الذى يعامل به كل منهما . فتحت عنوان : « باب من أحب بالوصف » يقرر أن الحب بالوصف مجرد نقطة بداية لا بد أن تتحرك فتتم أو تموت ، ثم يقول : « وأكثر ما يقع هذا فى ربات القصور ، المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكنه منهن » . ولنا نوافق على تفسير « محجوبات » بمعنى مترفات غير مضطرات لمغادرة بيوتهن لطلب الرزق^(١) ، والكلمة متضمنة لهذا المعنى على كل حال ، ولكنها إذا حصرت فيه بطل التعليل ، فالحق أن المخيلة تبلغ قمة نشاطها حين لا تجد النفس ما يشغلها ويوجب على تطلعاتها واقعياً وسلوكياً ، وكما كان الأدب الرومانسى وليد العزلة والتخيل معاً ، فكذلك فتيات الطبقة الراقية فى مجتمع الحريم والقصور ، حين يحال بينهن وبين الخروج إلى الحياة والاختلاط بالآخرين ، تتراجع التجربة الحياتية وينشط التأمل وتمتلىء النفس بالأوهام ، وإذا لم يكن الحجاب هنا بمعنى العزلة بين الرجال والنساء ، أو يتضمن هذا المعنى ، فكيف ينشأ الحب على الوصف أصلاً ؟ !

ويرتبط نشاط المخيلة عند المرأة فى هذا المجال بوضعها الاجتماعى وطبيعة عملها كما قدمنا ، وينص ابن حزم على ذلك ، ويربطه بنتائجه من رغبة المرأة ، مهما كان فضلها وفضيلتها وعمرها وطبقتها ، أن تشغل نفسها بأمور الحب ، تمارسه ، أو تعين عليه بأى شكل كان : « وإنك

(١) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة - ص ٢٥٨ .

لترى المرأة الصالحة المسنة ، المنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحب أعمالها إليها ، وأرجاها للقبول عندها ، سعيها فى تزويج يتيمة ، وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلّة . وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه . والرجال مقتسمون فى كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحياطة العيال ، ومكابدة الأسفار ، والصيد ، وضروب الصناعات ، ومباشرة الحروب ... إلخ . فكأنه لا يقول بالفرائض الفطرية على إطلاقها ، وإنما يشرك معها ، أسلوب تقسيم العمل فى الجماعة ، بل تكاد كلماته تجعل هذا العامل هو الفارق الحاسم المؤثر فى تكوين الطباع وتوجيه الاهتمام . ويذكرنا هذا بكلمة للجاحظ جاءت فى « رسالة فى العشق والنساء » تقول : « رجالان لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأن فى الرياسة الكبرى وفى جواز الأمر ونفاذ النهى وفى ملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحترق فى العشق^(١) » . فإذا كان النساء غير الرجال لأسباب عملية فإن الرجال ليسوا جميعاً على وتيرة واحدة لنفس الأسباب . وقد تنمادى مع هذا التصوير لابن حزم ، فنزعم أن المرأة التى تحترف مهنة يختص بها الرجال ، وقد تضطرها إلى مخالطتهم بإسراف ، قد تأخذ جانباً من نظرتهم إلى عاطفة الحب ، وكذلك الرجال الذين يمتنون أعمالاً ناعمة ، هى من صميم النشاط النسوى ، ولعلها تضطهرهم للمعايشة المستمرة للنساء ، قد يأخذون بنصيب كبير من لغة المرأة وتطلعاتها ، وحكمها على الأشياء ، فضلاً عن عواطفها تجاه الآخرين . وإذا كان العلم قد أثبت أن الرجل ينطوى على نسبة من هرمونات الأنوثة ، وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة فى وجود هرمونات ذكورة ، فإن النسبة تختلف ، فترتفع عند بعض ، وتنخفض عند آخرين . وهذا يعنى فى النهاية أن « المهنة » هى التى تختار الشخص ، أكثر مما يختارها .

ويسجل ابن حزم للنساء القدرة على حفظ أسرار العشاق ، وهو امتداد طبيعى لإنشغالهن السابق ، وليس هذا عند الرجال ، « وما رأيت امرأة كشفت سر متحايين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة » ، وسيقابل هذا عند الرجل ما ترى من أنفته من تزويج ابنته أو أمه .

ويقتر ابن حزم للمرأة بالحساسية الشديدة فى النقاط أية كلمة أو حركة هاجسة تدل على ميل الرجل إليها : « واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار » . وتردد أصداء الفعل الجنسى ، وحيل العشاق وأفانينهم للحصول على ملاذه فى هذه الأخبار التى تتقاطر على صفحات الكتاب ؛ ولا يسوقها ابن حزم سوق الأخبار المقررة ، بل يسبكها

(١) رسالة فى العشق والنساء : ص ١٦٦ .

فى سياق يتم على تذوقه للمغامرة ، ومعاشتها تخيلا وشعورا ، فتأمل دلالة الخير ، ثم تأمل أسلوب صياغة .

« فهذه فتاة - أو جارية كما يقول - اشد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، وهو بغرارة الصبا لا يشعر ، ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياء منه ؛ « لأنها كانت بكرا بخاتمها » ، فلما تمادى الأمر ، وراد الشوق عرضت له بالشعر فما نفعها الشعر ، وضاق صدرها ولم تمسك نفسها فى قعدة كانت لها معه فى بعض الليالى منفردين ، ولقد كان يعلم الله عفيفا متصاوتا بعيدا عن المعاصى ، فلما حان قيامها عنه بدرت إليه فقبلته فى فمه ، ثم ولت فى ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة ، وهى تتهادى فى مشيتها »

« وهذا فتى آخر وجارية أخرى ، وكان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانا يضطجعان فى حصرهما أحد ، وبينهما اسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، والى رؤسهما وراء المسد ، ويقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يريان ، وكأنهما إنما يتمددان من الكسل . ولقد كان نبع من تكافيهما فى المودة أمر عظيما ، إلى أن كان الفتى المحب ربما استقال عليها !!

فهذه بعض أخبار ، تقوم على طغيان الرغبة الجنسية ، وتحايلها ، وكما تشى بارتياح الكاتب لها ، وعدم نفوره أو رفضه لها ، فإنها تدل على مدى الحرية التى كان الفتيان والفتيات يستمتعون بها ، وحين نصور بعض هذه الأخبار نجد ما فيه من استحالة التحقق مع وجود آخرين ، فكيف تتم القبلة خف مسند ، وكيف يمكن للفتى أن يستطيل على الفتاة ، متجاوزا القبلة ؟ ! إلا أن يكون تسامح الطبقة المترفة مع أبنائها قد أباح التغاضى عن مثل هذه الأشياء ، ولعل « طرق الحمامة » يعطى هذا الانطباع بالفعل .

وهناك أخبار أكثر حدة وانكشافا من هذه الحركات المراهقة التى يقوم بها فتى وفتاة ، لا يعيننا أن نتوقف عندها ، غير أننا نخلص منها إلى أن ابن حزم يرى أن التوافق والإشباع الجنسي من أهم المسالك المؤدية إلى الرضا النفسى والمحبة ، وهو بهذا يخالف تماما أولئك الذين فرقوا بين الحب والشهوة ، ولقد رأى - كما دل كلامه من قبل - أن النفس تمثل الهوى والأمر بالسوء ، ولكنه يستعمل كلمة « الحب » فى مقام الحاجة الجنسية والرغبة دون أن يقلق على دلالة الكلمة .

تلك إذن حاجات الجسد يسجلها ابن حزم بلا تمحرج ، يعتبرها صورة من صور الحب أو أسكاله ، أو طريقا إليه . بل يسجل حاجات الجسد الشاذة التى تحترف به عن نداء الطبيعة النسوية ، فالربطة هنا قوية بين ابن حزم وكتابات الجاحظ التى اتخذت الواقع - أو جانبها منه

- مصدرا أساسيا لتصوير الحب وأفاعيله فى النفوس ، ولكننا نقول بأن ابن حزم يختلف عن الجاحظ فى تناوله لموضوع الحب ، لقد كان الجاحظ يأتى على كل ما يريده من أخبار فاحشة وكلمات مكشوفة ، ويستغفر الله فى ختام الرسالة ، أما ابن حزم فإن شخصية الفقيه لم تفارقه فى ثنايا كتابه ، وقد امتزج فقهها بقدر من الفلسفة يستدعيه الموضوع ، ويتمثل ذلك فى تصوره لأسباب الحب وأطواره وعلاماته وآفاته . وفى هذا الجانب يقترب ابن حزم من إطار النظرية العامة فى الحب العفيف ، أو الحب العذرى ، وقد يكون من الخير أن نتعرف عليه مع من سبقوه إلى اكتشاف معالمها .

وفى هذا الملحق الأخير يتجلى التوازن الثالث بين رعاية الواقع المباشر ، وتجاوز هذا الواقع بالتأمل الفلسفى والتحليل النفسى . وبالنسبة للواقع المرحلى الذى عاشه ابن حزم فقد أمده هذا الواقع بأكثر أمثلة كتابه ، ولكن نزعت الفقهية الجدلية ، القائمة على تقصى المسائل ، وتنبيت الكل إلى أجزائه ، وتجميع الأجزاء فى رؤية كلية ، قد أعانته على تصورات لم تتداول قبله ، وقد يشير بعض الباحثين إلى التسلسل المنطقى فى عرضه لمادة كتابه ، وتناوله للموضوع ، كما تنبى عقلية السيكلوجية فى كونه يربط الحب بالزمان ، فيرفض القول بإمكان الحب من أول نظرة ، ويرى أنها الشهوة وليس الحب ، أما الحب المتمكن فيحتاج إلى الزمن الطويل ، وملازمة الحب للمحبوب ، ومشاركته فى تقلبات حالاته^(١) . وقد سبق ابن داود إلى معالجة هذا الأمر تحت عناوين مختلفة ، عن بداية الحب وأطواره وحالاته ، كما عرفنا .

وفى باب : « من أحب صفة لم يستحسن غيرها مما يخالفها » ، يشير ابن حزم كيف تتحكم التجربة العاطفية الأولى فيما يعقبها من تجارب ، فيخير عن نفسه أنه أحب فى صباه جارية شقراء الشعر ، فما استحسن بعدها سوداء الشعر مهما كانت درجة حسنها ، ويخير عن أصدقائه من أحب ذات جيد فيه بعض الوقص ، فما استحسن بعدها غيداء أبدا ، ومن أحب فتاة قصيرة فما أحب طويلة أبدا ، ومن هوى جارية فى فمها فوه لطيف ، فعاش يتقدر كل فم صغير ، وهو بهذه الملاحظة التحليلية الذكية « يكاد ينص على ما اصطلاح علماء التحليل النفسى اليوم على تسميته باسم الثبيت ، وهو عبارة عن ارتباط المرء فى صباه بشخص أو شىء ارتباطا وثيقا ، بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسى أو البلوغ العاطفى »^(٢) .

وهذا التفسير هو الذى دلت عليه التجربة وأكدته الطبع فى الف الإنسان وتعلق وجداته بمشاهداته الأولى التى تصادف نفسا فارغة وقلبا خاليا ، أو ترتبط الأشياء فى لا شعوره بمناسبة

(١) ابن حزم الأندلسى ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٢) ابن حزم الأندلسى ص ٢٤٥ والمراجع المبين بهامشها .

قوية لا يسهل التخلص من أثرها . وهناك تفسير آخر يقوم على تقسيم الرجال فى مسلكتهم تجاه الحب إلى شخصيات نمطية يشكلها المجتمع ، وترتبط عواطفها بنظام الزواج والأسرة ، وهذه الشخصيات تهتم بالاستقرار والاستمرار ، وشخصيات أخرى شعارها الـ « دونجوان » فى توتر حبه وتوجهه وتنقله الدائم ، فهما نقيضان فى الطباع ، ولكن قد تتوق الشخصية الدونجوانية إلى نوع من الوفاء والاستقرار ، تظن ذلك سيجلب لها الراحة والخلاص ، وهنا يحدث نوع من الاختيال إذ يعيش الدونجوان عددا من النساء تمثل كل واحدة منهن نسخة عن سابقتها ، وكأنه بذلك قد حقق الوفاء للصفة المشتركة فيهن جميعا واستمر - مع هذا - فى تنقله ، ومن هذا القليل قول الشاعر :

نقل فزادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول^(١)

والتعليل النفسى عندنا أصدق ، لأنه يتصف بالشمول ، وقد يصح هذا القول الآخر فى حالات معينة من العشق ، وليس فى كل حالات العشق ، أما التثيت فهو فى العشق وغيره ، وكلنا نلاحظه فى ميلنا فى اختيار ألوان الثياب ، وأنواع الطعام فضلا عن العلاقات الإنسانية كاختيار الأصدقاء ، وما إلى ذلك مما ينشأ عليه المرء ويتعلق به من قديم . ومهما يكن من أمر التفسير فإن ملاحظة صاحب الطوق صحيحة .

وقد قدم ابن حزم من خلال ما زوى من أخبار ، عددا وافرا من الأنماط البشرية والأمراض النفسية ، فى عبارات وصفية صادقة وموجزة ، فهذا رجل متبذ ناحية ، يتكشف - فى رأى الخبير - عن عاشق ، وليس بعريب ؛ « لبهت مفرط ظاهر على وجهه فتقط دون سائر حركاته » . وهذا الشاعر الرمادى (يوسف بن هارون) يرى جارية فيعلق بها قلبه من أول نظرة (يروى ابن حزم خبره رغم رفضه القاطع للحب من أول نظرة) ويجرى بينهما الحديث هامسا حيا عذبا ، وتمنحه اسمها ووعدها بلقائه فى نفس المكان والساعة كل جمعة ، وتمضى ، ثم لا يقع لها على أثر ، فتأخذ بمجامع قلبه ، « وهى خلوة التى يتنزل بها فى أشعاره » . فهل صادفها الرمادى حقاً ، أو هو حلم من أحلام اليقظة ؟ ! ، وهذا صاحب القطوب الدائم « ولاسيما مع النساء » يكرهه نقلة حلالة شمائله ، فما إن يحدث اللقاء حتى يتحولن إلى الضد ، ويقى صاحبنا على حاله !! ، وهذا مقدم بن الأصفر أيام حداثته ، يعشق فتى ، فيهجّر الصلاة فى مسجد منطقته ، ويسعى إلى منطقة أخرى فى الليل حتى يأخذه الحرس أكثر من مرة ، وحتى يضره الفتى المعشوق . وهذه امرأة جليلة ، وعلى جلالها وحفظها لكلام الله تستر على العشاق ، وتأمل لو استطاعت أن يكتمل اللقاء برعايتها ومالها « وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان ممن

(١) فى الحب والحب العذرى ص ٦٠ - ٦٢ .

امتحن بالعشق قديما ، ودهى به ، وطالت مدته فيه ، ثم عرى عنه بعد إحكامه لمعانيه ، فكان راغبا فى صيانة من رقب عليه ، فبإراده الله أى رقية تأتى منه ، وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته » ، فهذا الحب المفلس هو أكثر العشاق ضراوة حين يتحول إلى حارس للأخلاق .

وهذه بنت زكريا بن يحيى المعروف بابن برطال ، كانت متزوجة بيحيى بن محمد ، « فعاجلته المنية وهما فى أغص عيشهما ، وأنضر سرورهما ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات ، وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها » . فانظر كيف ربط ابن حزم بين العمر الغض والسعادة النضرة ، وبين الحزن القاجع والموت ، ربط النتيجة بالمقدمة ، وغير ذلك عشرات ، بل مئات من اللفتات الذكية العابرة ، والشخصيات الحية التى تمر بحرارة الحياة والتهاب العاطفة والرغبة فى المتعة ، مما يمكن أن يصنع فى النهاية سلسلة متدرجة من الطباع ومناحي السلوك والتصورات الأخلاقية ، تستوفى الأنماط البشرية فى أغلب أحوالها ، وبخاصة فيما يتعلق بهذه العاطفة : عاطفة الحب .

وفى ختام هذه الرحلة القصيرة مع ابن حزم ، يمكننا أن نجمل نظرتة للحب ، بشكل يوضح الفرق بين رأيه ، وآراء سابقيه تجاهها : ليس الحب عنده فكرة تأملية ورياضة روحية ، وليس صفة يتحلى بها الظريف بقصد استكمال شخصيته الاجتماعية والإعلان عن كياسته ورهافة ذوقه . الحب عند ابن حزم تجربة شخصية مباشرة ، شديدة الخصوصية ، تنهض بين طرفين هما الرجل والمرأة ، وتستكمل نفسها بتمام لقائهما جسديا . ولهذا لا يتجاهل شخص المحبوب بدعوى أنه لا اختيار له ولا إرادة فى كونه قد صار محبوبا ، فالحب معاناة شخصين ولا يصح إطلاق الوصف إذا كان من طرف واحد ، ومن ثم فإنه ليس حقيقة ذهنية تتحقق بتوجه إرادة الحب وإخلاصه الفكر منقطعا عن تجارب المحبوب أو عدمه ، ان المعاناة تعنى أن حقيقة الحب « توجد » ، ولأنها توجد فإنها « تتغير » ، و« تتحول » فيصير الحب فتورا ، وأحيانا كراهية !! ولأن الحب توجه إنسانى وليس حقيقة مطلقة فإنه يتأثر بظروف الحب ، وظروف المحبوب ، وما يكتنفهما من مؤثرات الزمان والمكان . ومع الإقرار بذاتية التجربة فى الحب ، فإن هذه التجربة تصير شيئا جديدا يتجاوز حاصل جمع مفرداتها : (الحب والمحبوب والعاطفة الناشئة بينهما) فتكتسب قدرا من الاستقلال حتى عن أطرافها الثلاثة ، بمعنى أنها قد تسوق - بقوة منطقها الخاص ، أو لنقل : قانونها الخاص - قد تسوق الرجل والمرأة إلى ما لم يكونا يقصدان إليه قصدا متعمدا . وليست الصلة الجنسية شيئا منحطا أو دنيا ، إنها تعبير عن شعور ، ولهذا تترك أثرا روحيا فى الإنسان مع أنها تعبير جسدى فى الظاهر ، وهذا يعنى أن التوافق تام بين الروح والجسد ، وأن رغبة أحدهما تستكمل بتحقيق رغبة الآخر .